الفصل الثالث

إجهاض انتصار أكتوبر ١٩٧٣م

obeikandl.com

obeikandl.com

تعد حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ هى الحرب الأولى والوحيدة التى انتصر فيها جيش عربى على العدو الإسرائيلى فى حرب تقليدية مفتوحة؛ وذلك ما دفع صانع القرار فى مصر إلى تأمين هذا النصر بصورة شابها – فى تقديرى – التعجل وعدم القراءة الجيدة لمناورات العدو الذى يحظى بتأييد مطلق من الغرب والولايات المتحدة الأمريكية التى وضعت كل إمكاناتها فى خدمة العدو الصهيونى؛ مما جعل ميزان القوة يميل إلى جانب إسرائيل.

ولعل نكسة يونيو ٦٧ كانت مازالت تخيم على مخيلة القائم على أمر السلطة فى مصر؛ مما جعله يمضى قدماً فى السعى إلى اتفاق يضمن (وقف لإطلاق النار)، وإفساح المجال لإجراء المفاوضات .

لكن هذه المفاوضات التى بدأت مع «فك الاشتباك الثانى فى ١ سبتمبر بين مصر وإسرائيل وحتى توقيع اتفاق كامب ديفيد فى ٢٦ مارس سنة ١٩٧٩»[١] فطن عدد من الشعراء وغيرهم إلى ما انطوت عليه من ثغرات أغرت العدو بالقيام بمؤامراته الخبيثة؛ ففى «كل مشروع سلمى يطرح كان موقف إسرائيل يتوخى الدقة فى فهمه وإدراك مردوداته الإيجابية بالنسبة لها»[٢] إنها «سعت على الدوام إلى دفع العرب نحو القبول أو الاقتناع بالدخول معها فى عملية مفاوضة حول المشاكل العالقة بين الطرفين وجرهم إلى مشاريع تسوية سلمية بدل الحرب، وأن عملية المفاوضة أساساً تتضمن حقيقة اعتبار إسرائيل لنفسها دولة وكيان سياسى شرعى وأن عملية الحرب بحد ذاتها تنفى هذا الاعتبار فالتفاوض كيفما كان هو اعتراف بوجودها حتى وإن كان هذا الاعتراف هو سلباً ورفضاً فى خضم فعل التفاوض، فإن الرفض هنا ينطوى على حقيقة بالقبول والاعتراف بالوجود، لأن رفض الوجود ينبثق أساساً من وجود قائم فعلاً، فالرفض هو معطى ثانوى لواقع أساسى هو الوجود المسبق لكيان ما. ومن هنا وقعت الدول العربية فى فخ الاعتراف بوجود دولة عبر رفض وجود هذه الدولة. وعلى هذا المنوال فقد توالت مراحل التفاوض السلبى اللاحقة أو الرفض العربى الذى كان نقطة إيجابية

(١) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك ص٢٦.

(٢) الخصوصية الاستراتيجية للعالم العربى – د. علاء طاهر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة ١٩٩٢ – ص١٢٦ .

للجانب الإسرائيلي»[1] «وكانت لعبة إسرائيل الجديدة هى استثمار الطريقة المستجدة على طبيعة الصراع والقاضية بالتنازل التدريجى من قبل العرب والاعتراف المتزايد بوجودها والتورط بمناقشة التفاصيل الصغيرة وتناسى القضايا المبدئية الكبرى»[2].

«فكان أسلوب إسرائيل على الدوام هو الانتقال من تفصيل ثانوى إلى تفصيل آخر أصغر من سابقه، وذلك لأجل تكريس ما هو راهن وجديد لكى يكون حقيقة راسخة إضافية تصلح لأن تكون منطلقاً لكسب واقع احتلالى راهن جديد يغدو راسخاً بعد ذلك عبر طرحها لتفاصيل ثانوية بعده تصلح منطلقاً لوضع جديد.. وهكذا»[3]. وبذلك فقد «غدت حالة احتلال الأراضى الإقليمية أو تحريرها محض فعل تكتيكى داخل جهد استراتيجى طويل الأمد يسعى إلى تذويب الهدف الأعلى أو تمويهه داخل عملية المساومة على رد الأرض أو استردادها مغطياً بذلك على الهدف الأساسى الذى ينحو باتجاه تركيز الكيان السياسى للدولة ونزع الاعتراف التدريجى بوجودها الشرعى. ومن هنا يغدو العمل العسكرى أو المواجهة المسلحة عملاً ثانوياً بالنسبة للهدف الأعلى الذى يموضع نتائجه فى أعقاب الفعالية الدبلوماسية اللاحقة للعمل العسكرى»[4]. ولذلك فقد «تلاحق السيناريو المعروف فى زيارة السادات لإسرائيل ثم عقد معاهدة كامب ديفيد، حيث حصلت إسرائيل عبرها على أقصى ما يمكن لمنتصر وليس لمهزوم، بينما قدمت مصر أعلى حد من التنازلات وكأن النصر العسكرى لم يكن، هذا علاوة على كسب إسرائيل لغاية استراتيجية عليا هى إخراج مصر من الصراع وانتزاع اعترافها بكيان الدولة الصهيونية»[5].

«وهنا يجدر التساؤل: ما هى الجدوى من حرب أكتوبر، ألم يكن بالإمكان أن تحقق مصر كل ما حققته فى معاهدة كامب ديفيد بدون حرب بل بمفاوضات مباشرة مع إسرائيل وبخروجها من حلبة الصراع فقط»[6]، وهل استثمر العرب «هذا الانتصار

(١) المرجع السابق، ص١٢٣ .
(٢) السابق – ص١٢٧ .
(٣) المرجع السابق – ص١٢٧ .
(٤) السابق نفسه – ص١٢٢ .
(٥) السابق نفسه – ص١٣١.
(٦) السابق – ص١٣١، ١٣٢ .

الحاسم فى جهودهم الدبلوماسية بحيث جعلوا إسرائيل تتراجع عن هدفها الأعلى وهل تقدموا نحو أهدافهم النهائية فى تحرير الأرض وكسر شوكة إسرائيل المتعنتة وجعلها ترضخ لطلباتهم المشروعة القاضية بإقامة دولة للفلسطينيين واستعادة أراضيهم المحتلة و...»[١].

والحق أن الأمور قد صارت على العكس من ذلك تماماً. إذ ظلت مصر – وبعدها معظم الدول العربية – تتفاوض مع إسرائيل بمبدأ المنهزم على الرغم من تحقيق نصر أكتوبر. وهو ما خلف لدى عدد من الشعراء المصريين شعوراً حاداً بالإحباط؛ فقد رأوا فى محادثات السلام، ومعاهدة الصلح مع إسرائيل إهداراً لما تبقى لديهم من أمل، وإجهاضاً لما طمحوا إليه من جنى ثمار نصر أكتوبر ١٩٧٣ الذى ظنوا أنه سيكون بداية الطريق للعودة بالكرامة المسلوبة، واسترداد الأراضى العربية المغتصبة.

هذا، «فضلاً عن نسيان العربى لدماء أخيه العربى التى سفكت فوق هذه الأرض بل الاعتراف بالأراضى التى امتزجت بالدم العربى بأنها أرض العدو»[٢]. «وكأن الدم العربى الذى أهدره العدو الصهيونى، ولا يزال يهدره حتى توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وما بعد كامب ديفيد، وحتى وقتنا الحالى* لا قيمة له»[٣].

ولذلك فقد تبدى الشعور بالإحباط واضحاً على عدد من الشعراء المصريين، وسرى فى أشعارهم بصورة حادة وعنيفة.

وعلى رأس هؤلاء الشعراء يأتى الشاعر (أمل دنقل)؛ فقد كان موقفه «من الصلح مع إسرائيل هو موقف المعارضة الصريحة»[٤].

وقد أسبق هذه المعاهدة بالتحذير منها بعد أن أكد على أن فرضية حدوثها يعنى بالضرورة إهداراً للدم العربى الذى أريق على طول تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى. وذلك فى قصيدته (لا تصالح) التى «أصبحت من معلقات الشعر الحديث»[٥]. يقول

(١) السابق – ص١٣٠.

(٢) الدم وثنائية الدلالة – ص٣٦.

* يضع صاحب المرجع سنة (١٩٩٣) بعد عبارة (وحتى وقتنا الحالى) وقد آثرت حذف هذا التاريخ فالدماء ما زالت تسفك وتهدر حتى وقتنا الحالى (٢٠١٢) وحتى يقضى الله أمره.

(٣) السابق نفسه – ص٩.

(٤) المدينة فى الشعر العربى المعاصر – د/ مختار على أبو غالى – ص٢٣٥.

(٥) صلاح فضل والشعرية العربية – تأليف/ أمجد ريان – ط دار قباء ٢٠٠٠م – ص٦٣.

الشاعر:

لا تصالح!
.. ولو منحوك الذهب
أترى حين أفقأ عينيك،
ثم أثبت جوهرتين مكانهما..
هل ترى..؟
هى أشياء لا تشترى»[1].

ثم يغوص الشاعر فى براعة فائقة فى أعماق هذا الحس الإنسانى النبيل:

«ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك
حسكما – فجأة – بالرجولة،
هذا الحياء الذى يكبت الشوق.. حين تعانقه،
الصمت – مبتسمين – لتأنيب أمكما..
وكأنكما
ما تزالان طفلين!
تلك الطمأنينة الأبدية بينكما:
أن سيفان سيفك..
صوتان صوتك
أنك إن مت:
للبيت رب
وللطفل أب
هل يصير دمى – بين عينيك – ماء؟
أتنسى ردائى الملطخ..

(١) الأعمال الكاملة – أمل دنقل – ص٣٤٧.

تلبس – فوق دمائى – ثياباً مطرزة بالقصب؟»[1]

ومن ثم ينفذ الشاعر مباشرة إلى صلب نداءاته وتحذيراته؛ فقد افتتح الشاعر قصيدته، وعنون لها بقوله: (لا تصالح). وهو نهى يستند فى حقيقته إلى مجموعة من المبررات والحجج المنطقية التى ساقها الشاعر؛ للتأكيد على فداحة الخطأ الذى سيرتكبه صانع القرار فى مصر إن هو أقدم على عقد مثل تلك الاتفاقية مع العدو الإسرائيلى، يقول الشاعر:

«إنها الحرب
قد تثقل القلب..
لكن خلفك عار العرب
لا تصالح..
ولا تتوخ الهرب!
لا تصالح على الدم.. حتى بدم!
لا تصالح! ولو قيل رأس برأس
أكل الرؤوس سواء؟
أقلب الغريب كقلب أخيك؟!
أعيناه عينا أخيك؟
وهل تساوى يد... سيفها كان لك
بيد سيفها أنكلك؟

سيقولون:

جئناك كى تحقن الدم..
جئناك. كن يا أمير – الحكم

سيقولون:

(١) المصدر السابق – ص٣٤٧، ٣٤٨.

ها نحن أبناء عم

قل لهم إنهم لم يراعوا العمومة فيمن هلك»

-«لا تصالح..

ولو حرمتك الرقاد

صرخات الندامة»

-«لاتصالح

ولو توجوك بتاج الإمارة

كيف تخطو على جثة ابن أبيك..؟

وكيف تصير المليك..

على أوجه البهجة المستعارة؟

كيف تنظر فى يد من صافحوك..

فلا تبصر الدم..

فى كل كف؟»

- «لا تصالح،

ولو توجوك بتاج الإمارة

إن عرشك: سيف

وسيفك: زيف

إذا لم تزن – بذؤابته – لحظات الشرف

واستطبت – الترف

لا تصالح

ولو قال من مال عند الصدام

«ما بنا طاقة لامتشاق الحسام...»

-«لا تصالح،

ولو قيل ما قيل من كلمات السلام
كيف تستنشق الرئتان النسيم المدنس؟
كيف تنظر فى عينى امرأة..
أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟
كيف تصبح فارسها فى الغرام؟
كيف ترجوا غداً.. لوليد ينام
- كيف تحلم أو تتغنى بمستقبل لغلام
وهو يكبر - بين يدك - بقلب منكس؟
لا تصالح
ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام.
وارو قلبك بالدم..
وارو التراب المقدس..
وارو أسلافك الراقدين..
إلى أن ترد عليك العظام!»
-«إنه ليس ثأرك وحدك
لكنه ثأر جيل فجيل»[1]

هكذا تمضى القصيدة على هذا النحو، من تقديم الأسباب والمبررات المنطقية التى تكفى لسد الطريق أمام المفاوض المصرى؛ حتى لا يفكر فى المضى قدماً فى عقد تلك المعاهدة تحت أى ضغط.

لذلك جاءت القصيدة على هذا النحو الذى لايحتاج تأويلاً؛ لأنها تشى بمشاعر محبطة تعتمل بداخل هذا الشاعر الذى لم يخف تلهفه إلى استباق وقوع كارثة التصالح مع إسرائيل. وكأننا بالشاعر فى تلك القصيدة عندما ارتضى لها (الأسلوب الإنشائى) كان يسعى للحصول على إجابة مطمئنة يضمن بمحتواها عدم المضى قدماً فى طريق

(١) المصدر السابق ص٣٤٨- ٣٥٥.

توقيع تلك الاتفاقية مع هذا العدو الغادر. «فالشاعر يرفض سياسة الصلح مع العدو؛ خاصة إذا كانت قائمة على تشتيت وتمزيق الصف العربى لحساب القوى الصهيونية والمصالح الأمريكية. إنه يحث القوى السلطوية ممثلة فى السادات على الأقل ألا يقبل الصلح، مهما كانت طبيعة الإغراءات المادية التى تقدم فى شكل معونات. فالدماء العربية التى أهدرت لا يمكن إعادتها مرة أخرى، والعينان إذا أصابهما العمى لا يصلح أن نضع مكانهما جوهرتين من ذهب، كذلك الدماء إذا أهدرت لايمكن مقايضتها بالمال أو الذهب أو المعونات الأمريكية. فأخوة الدم لا تشترى، والدماء العربية التى تهدر فى بلد عربى آخر لا يمكن استبدالها أو إعادتها مرة أخرى»[1] ويلاحظ تكرار الشاعر عبارة «لا تصالح» (عشرين مرة) فى تلك القصيدة، كما يلاحظ أيضاً التنويع فى مواقع عرضها (كتابياً)؛ فتارة نجد الشاعر يضع أمامها علامة التعجب (!)، وتارة نجده يضع أمامها النقاط (...)، وتارة ثالثة يأتى بها وهى مقترنة بالفاصلة (،). هذا بينما تأتى فى أحيان أخرى وهى مجردة من أية علامة.

هذا. فضلاً عن وقوع هذه العبارة – فى معظم الأحيان – فى بداية كل مقطع من القصيدة، كما نجدها ترد فى أحيان أخرى بداخل السطر الشعرى، وفى النهاية نجد الشاعر يفرد لها المقطع الأخير من قصيدته، ويجعله خاصاً بها وحدها:

«لا تصالح

لا تصالح»[2].

إن هذا التنويع فى طريقة العرض الكتابى لتلك العبارة (لا تصالح) يعكس مدى خوف الشاعر من أن تؤدى محادثات السلام إلى عقد اتفاقية صلحٍ مع إسرائيل وهو ما يعنى أن يتحول كل ما خاضه، وكل ما تحمله أبناء جيله من تضحيات جسام إلى ورقة رخيصة يتم اللعب بها على مائدة الصلح والمفاوضات:

«قالت امرأة فى ألم

من يجرؤ الآن أن يخفض العلم القرمزى

(١) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك – ص٢٨٧ .

(٢) الأعمال الكاملة – أمل دنقل ص٣٥٩ .

الذى رفعته الجماجم؟
أو يبيع رغيف الدم الساخن المتخثر فى الرمال.
أو يمد يداً للعظام التى ما استكانت
(وكانت رجال)
كى تكون قوائم مائدة للتواقيع
أو قلما
أو عصاً فى المراسم
لم يجبها أحد
غير سيف قديم
وصورة جد!»[1].

إنها صورة محزنة أفصحت عن تحذيرات أطلقها الشاعر لم تجد نفعاً؛ فقد بدا واضحاً أن السلطة فى مصر ماضية قدماً فى توقيع تلك المعاهدة، كما بدا واضحاً أيضاً أنها لن تكترث لما يطلقه هذا الشاعر أو غيره من صيحات محذرة. وهو ما يعنى فى النهاية أن توقيع هذه المعاهدة سيكون وشيكاً، وما كان له أن يتم إلا بعد مروره على أنقاض أكوام متكدسة من لحوم الضحايا الشهداء الأطهار.

وبالطبع يتحمل مسئولية ذلك رأس السلطة الذى سقط فى شرك تلك المعاهدة، لذا توجه إليه الشاعر بقوله:

«ونحن – جيل بعد جيل – فى ميادين المراهنة
نموت تحت الأحصنة!
وأنت فى المذياع، فى جرائد التهوين
تستوقف الفارين
تخطب فيهم صائحاً: «حطين»..
وترتدى العقال تارة

(١) المصدر السابق – ص٤٣٧، ٤٣٨.

وترتدى ملابس الفدائيين
وتشرب الشاى مع الجنود
فى المعسكرات الخشنة
وترفع الراية،
حتى تسترد المدن المرتهنة
وتطلق النار على جوادك المسكين
حتى سقطت - أيا الزعيم
واغتالتك أيدى الكهنة!
(وطنى لو شغلت بالخلد عنه..)
(نازعتى - لمجلس الأمن - نفسى!)[1].

إن الشعور بالإحباط قد أطل برأسه بعد أن أفرز تلك السخرية المرة من تلك النزعة الانهزامية التى ماظن الشاعر أنها تظهر بعد تحقيق انتصار ٧٣. وهو ما جعل الشعور بالإحباط واليأس يسيطر على مخيلته إلى الحد الذى سمعناه معه يقول:

«اركضى أوقفى الآن.. أيتها الخيل:
لست المغيرات صبحاً
ولا العاديات - كما قيل - ضبحاً
ولا خضرة فى طريقك تمحى
ولا طفل أضحى
إذا ما مررت به.. يتنحى»
- «اركضى كالسلاحف
نحو زوايا المتاحف
صيرى تماثيل من حجر فى الميادين

(١) المصدر السابق - ص٤٢٨، ٤٢٩.

صيرى أراجيح من خشب للصغار – الرياحين
صيرى فوارس حلوى بموسمك النبوى
وللصبية الفقراء حصاناً من الطين
صيرى رسوماً.. ووشماً
تجف الخطوط به
مثلما جف – فى رئتيك – الصهيل!»
–«فاركضى أوقفى
كل درب يقودك من مستحيل إلى مستحيل!»
– «اركضى للقرار
واركضى أوقفى فى طريق الفرار
تتساوى محصلة الركض والرفض فى الأرض»
– «استدارت – إلى الغرب – مزولة الوقت
صارت الخيل ناساً تسير إلى هوة الصمت
بينما الناس خيل تسير إلى هوة الموت!»[1].

لقد فقد الواقع منطقيته حتى وصل إلى الحد الذى أصبح فيه البشر قابلين لتبادل الأدوار مع كائنات أخرى، وهو تصوير يعكس مدى ما يعانيه هذا الشاعر من مشاعر الإحباط التى تناوبت عليه فى صورة مخاوف، وهواجس قبل توقيع تلك المعاهدة، ثم تحولت إلى هم ثقيل، وشعور قاتل باليأس والقنوط مع دخول هذه المعاهدة حيز التنفيذ، وتحولها إلى أمر واقع فرض على الشاعر وغيره من أبناء وطنه أن يتحملوا تداعياتها وآثارها المحبطة:

«ماذا تبقى لك الآن:
ماذا
سوى عرق يتصبب من تعب

(١) انظر المصدر السابق نفسه – ص٤١٧ – ٤٢٢ .

يستحيل دنانير من ذهب
فى جيوب هواة سلالاتك العربية
فى حلبات المراهنة الدائرية
فى نزهات المركبات السياحية المشتهاة
وفى المتعة المشتراة
وفى المرأة الأجنبية تعلوك تحت
ظل أبى الهول..
(هذا الذى كسرت أنفه
لعنة الانتظار الطويل)»[1].

وهكذا اتضح «مدى المساومة على الدماء العربية التى أريقت، وعلى المخطط الإسرائيلى لعزل مصر عن البلدان العربية، وبرغم رفض القوى الشعبية، ورفض المثقفين فى مصر لهذا التطبيع، ولسياسة الصلح المنفردة، وللتنازلات المقدمة من الجانب المصرى، إلا أن السادات قد استمر فى سياسته. ومن ثم، رفض الشعراء العرب هذا التحول السياسى، وحسن توفيق واحد من الشعراء العرب الذين عبروا عن هذا التحول». وقد تمثل ذلك فيما أنتج هذا الشاعر من قصائد يرفض من خلالها «السياسات المزعومة، ويرفض المساومة على الدماء العربية، ويعرى المساومات السرية، والخطب الجوفاء التى تلقى فى المنابر السياسية، وتخلو من المضمون الجوهرى»[2]. ومن ثم وجدناه يتوجه مباشرة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى (مناحم بيجين) مفنداً مزاعمه، وكاشفاً عن الوجه القبيح الذى أخفاه تحت قناع الحب والسلام:

«بيجين يا شهوة النازية انتفضت ... والسم فى نابها المعقوف غدار
الحب للسلم بعض من مزاعمكم ... فشعبكم لاقتلاع الأمن مختار
عذبتم السيد السامى على جبل ... ودستم الحب مذ هدت لنا دار

(١) المصدر السابق – ص٤٢١، ص٤٢٢ .
(٢) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك – ص٣٠٤، ٣٠٥ .

بيجين إن ضمير العصر مرتبك ... مذ قيل: قد ينشق الأزهار جزار
لا حب يا من حجبت النور عن دمنا ... فالحب ليس لديه سمسار
لا حب والأرض فى أيدى الغزاة وإن ... خاف الطغاة على عرش سينهار»[1]

وإذن؛ فالشاعر لديه دوافعه المقبولة لرفضه محادثات السلام، والصلح مع العدو الإسرائيلى خاصة وأن تلك الدوافع والمبررات انطلقت من منطق ضرورة انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية التى احتلتها كخطوة تبدى حسن النية قبل الخوض فى تطبيق أى معاهدة صلح معها:

«ليس معنى الغضب
أننا نرفض السلم.. لا.. إنما فليعد أولاً كل حق لنا
فلتعد أرضنا كلها.. ولتعد كل أرض العرب
ولتكن أرضنا أرضنا، ولتكن شمسنا شمسنا
وليعد من يبيتون ليلاتهم فى ظلام الخيام
فوق طين المذله
فليعودوا إلى أرض أجدادهم دون أن يركلوا بين يوم وليله
يومها يبحث الناس بالحب عن عمق معنى السلام»[2].

ولا يفوت الشاعر أن يؤكد رؤيته هذه عندما يسوق عدداً من الجرائم المروعة التى ارتكبها هذا العدو الغادر بحق أبناء الوطن العربى الأبرياء فى فلسطين وسوريا ومصر؛ بغية تحفيز المفاوضين المصريين، وتذكيرهم بالدماء العربية الطاهرة البريئة التى أراقها هذا العدو البغيض؛ حتى لا ينسى هؤلاء المفاوضون فتضيع دماء الشهداء، وتضيع الأرض هباءً:

«يا دير يا سين اشهدى
يا كفر قاسم.. يا دم الأطفال.. فى الجولان.. فى بحر البقر

(١) الأعمال الكاملة – حسن توفيق – ص٢٦٦ .
(٢) المصدر السابق – ص٢٥٤ .

اصرخ هنا- كالويل – والعن غفلة الصنم الشقى المجهد
ما أتعس السلم المطل.. ولم تزل أمالنا وخيامنا دون البشر!»[1]

إن كلمات الشاعر تلك توجه كل المؤشرات إلى واقع داخلى فاسد شاعت فيه أكاذيب معسولة عن جنى ثمار نصر أكتوبر، وتحقيق كل النتائج المرجوة. ولكن فى حقيقة الأمر كان الواقع المعيش يكذب ذلك، ويدحضه:

«طرقات الناس كانت لأمانيهم فسيحه
فلماذا اليوم تبدو كالحات مربكه
أيها الذكرى الجريحه
ادفعينى طلقة تجتاح أضلاع لصوص مستشاريين لغشاشين
خاضوا
معركه
ليطلوا فى غرور
زاعمين اليوم أن النصر نصر الشعب نصر للجوارى فى القصور
إنه عصر كلاب الصيد لا عصر صلاح الدين والروح المليحه»[2].

إنه إذن عصر كلاب الصيد، أو – فلنقل – هو عصر الانتهاز واقتناص الفرص والثراء حتى وإن كان ذلك بالمساومة على أرواح الشهداء، وبيع الأرض. ومن ثم فإن الشاعر يتوجه إلى روح الرئيس الراحل (جمال عبد الناصر)؛ ليبثه حزنه وألمه وشكواه من ذلك الواقع الذى دنسته «أطماع أشباه الرجال»:

«هاهى الأرض حزينه
آه لو تصحو قليلاً كى تراها يا جمال
إنها باتت سجينه
دنستها الآن أطماع لأشباه الرجال

(١) المصدر السابق – ص٢٥٨، ٢٥٩.
(٢) المصدر السابق – ص٢٤٧، ٢٤٨.

رهنوها فى دهاليز البنوك الأجنبيه
ثم ألقوها لأنياب الذئاب العنصريه»[1].

وهكذا خابت آمال الشاعر فى حصد النتائج المرجوة من نصر أكتوبر التى كانت تتلخص فى استعادة الكرامة العربية المسلوبة، واسترداد الأراضى والحقوق المغتصبة. لذلك بدا الشعور بالإحباط حليفاً للشاعر. خاصة بعد أن رأى الإصرار من قبل السلطة المصرية على عقد معاهدة الصلح مع إسرائيل، وسعيها الدءوب من أجل تحقيق ذلك؛ خاصة بعد زيارة الرئيس السادات إلى إسرائيل (فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧)؛ ومن ثم ازداد يأس الشاعر، وتكالبت عليه مشاعر الإحباط من هذا المفاوض المصرى الذى توجه إليه الشاعر هاجياً ساخراً منه بصورة أراها غاية فى المبالغة التى تفتقد اللياقة:

فجأة زارها.. ثم عاد الدنىء[2]
لابساً عاره دون أن تخجل الروح حين تباهى بعشق الخيانه
يا رفاقى اشهدوا أن روحاً جبانه
تشترى السلم بالذل كى تستقر على العرش فى كل يوم يجىء
امض نحو العدو الذى كم أسال دمانا بخبث وناج اليهود
وابتسم فى بلاهه
يا مريض الرؤى أنت تحتاج طول المدى للنقاهه
أيها المؤمن الزئبقى الودود!!
مؤمن أنت لكن بنهب قصور الملوك القدامى وغش التجاره
باستراحات عهر تشاد بلحم الحفاة الجياع
مؤمن بالخداع.. لذا ترتدى – كل يوم – قناع»[3].

إلى هذا الحد وصل ضيق الشاعر بهذا الحاكم (المفاوض) وحنقه عليه. ثم يعود الشاعر إلى ذمه وهجائه فى قصيدة أخرى:

(١) المصدر السابق – ص٢٨٩ .
(٢) يشتمل هذا الوصف على تجاوز لا يتناسب والنقد السليم .
(٣) السابق نفسه – ص٢٥٢، ٢٥٣ .

«قامر وجعجع بالسلام وبالحدائق مشرقه
وببسمة الطفل الكسير لأنه افتقد الحنان من الأبوة فى مجازر
لم تـــــدم إلا ..
لحين
كى يستقر على هواك الملك، قربك قطة مسعورة ومرابيه
تمشى على جثث الضحايا
كى تجمع المال الحرام، تدسه فى جوف بنك صامت أو هاويه
وتلوح مثقلة بما يأتى من القدس الجريحة من زخارف أو هدايا
شهقت هدايا القدس فى أرجاء قصرك دهشة، فالقدس محتله[1].

هكذا تلوح صورة القدس المحتلة أمام مشهد الصلح مع إسرائيل؛ ليجدل الشاعر منها مشاعر الإحباط التى سيطرت عليه لخيبة الأمل فى تحقيق النتائج التى كانت يظنها قريبة المنال بعد تحقيق انتصار أكتوبر، ولكن لم يتحقق فعلياً شىء منها إن على أرض الواقع الداخلى، أو على أرض الواقع الإقليمى الخارجى .

وكأحد الجنود المقاتلين الذين شاركوا فى تحقيق نصر أكتوبر ١٩٧٣ يتقدم الشاعر (عصام الغازى) إلى حبيبته/ مصر بهذا التوسل المتلهف الضارع:

«أحبك.. لكننى لا أبالى
لقاء المنايا.. وغزو الشرر
سأزرع فوق تلالك عظمى
وأمسح عن مقلتيك السهر
وأترك جمجمتى فى ذراك
تعشش فيها صقور الظفر
أحبك هذا سلاحى بكفى

(١) المصدر السابق – ص٢٥٦ .

فلا تغمديه.. إذا ما انتصر!»[1].

لكن السلاح قد أغمد وأفسح المجال لعقد معاهدات الصلح مع العدو الإسرائيلى الذى أراق دماء أبناء الوطن الأبرياء الشرفاء، فكان ذلك مدعاة لمشاعر الإحباط التى أخذت تجتاح كيان هذا الشاعر الذى توحد مع صديقه الراحل الشاعر (أمل دنقل) بقوله:

«رأى جلده وريقات يحملها الأجنبى
عليها بنود (السلام)
والنهر سيف من الماء يركع»[2].

إن الشاعر (عصام الغازى) لا يغيب عن ذهنه أن يشير دائماً إلى التضحيات الجسام التى قدمها الشعب المصرى من أجل تحقيق الكرامة واسترداد الحقوق المغتصبة، كما لم يكن غائباً عن ذهنه التحذير من التداعيات الكارثية الخطيرة التى ستتركها معاهدة السلام هذه على كافة جبهات الصراع العربى الإسرائيلى:

«يغضب النهر.. فلا ينطق
تعصب الأرض الجبين بثوب «أوزوريس»
والمبدان يركض
يمسح الأقدام بالعلم الغريب
يفجر «القدس» على كل الحناجر
يتقيأ ما بداخله من العار
على أسوار مبنى البرلمان!
«فى انحناء الشارع الشرقى
تمرق عربة سوداء
تحمل عاشقين تعانقا

(١) الجياد تموت واقفة – شعر عصام الغازى – ص١٤١ .
(٢) السابق نفسه – ص٢٨ .

خلف الزجاج
تدوس وجه (دلال)* مقتولا
فتكتسح البرودة أضلعى
والشارع الغربى يعزف لحنه المسعور»[1].

وبناء على هذا فإن عقد تلك المعاهدة ضياع للحقوق العربية وإجهاض لنصر أكتوبر الذى تغنى به الشاعر من قبل آملاً فى أن يكون طريقه إلى استعادة الكرامة واسترداد جميع الأراضى العربية التى اغتصبتها إسرائيل، ولذلك وجدنا هذا الشاعر الذى خاب أمله يصب جام غضبه على رأس السلطة التى تفاوض العدو الإسرائيلى بعد أن رمز له الشاعر (بأبى لؤلؤة المجوسى) قاتل سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، والشاعر أهدى هذه القصيدة إلى «روح الثائر: جمال عبد الناصر»:

«(لؤلؤة) الأعمى
إنى ألعن يومى
حين وقفت أصلى خلفك
أو بجوارك
كان الليل طريقاً ممتداً
وأنا أحمل شوق الإنسان إلى العدل
وكانت أقدامى تهترئ شقوقا
يسكنها النمل
وتبحر فيها ريح الهول
وكان القلب مدينة حزن يتقاسمها السفهاء
سماسرة الحرب، وتجار الماء
وحملة أوسمة العهر،

* (دلال المغربى) فدائية فلسطينية استشهدت خلال عملية إنتحارية فى تل أبيب.
(١) السابق نفسه – ص٣٦- ٣٨.

وباعة لحم الوطن المهزوم

بغير حياء!»(١).

هكذا رأى الشاعر عقد تلك المعاهدة بمثابة مفارقة أبدية للكرامة العربية التى أهدرت على مدى سنوات طويلة؛ لذلك فإن شعوره بالإحباط من جراء تبنيه تلك الرؤية المتشائمة سيكون وقعه عليه حاداً ومضاعفاً؛ خاصة بعد أن تأكد إصرار الحكومة المصرية على المضى قدماً فى توقيع تلك المعاهدة:

«يا كل نساء القرن العشرين

أفرغن الآن الأرحام

حطمن سياج الحريه

كى تخرج عارية للريح

تمشى فى الأرض بلا تصريح

وتسافر تحت جلود الناس

وتحرك فيها الإحساس

....

يا كل الأطفال اعتصموا   فى رحم القرن العشرين

الوطن اليوم يباع   وتلقى كلمات التأبين

الوطن اليوم يباع   فمن منكم قبل التثمين؟!»(٢)

إن الوطن يباع فى عملية الصلح مع إسرائيل، والشاعر يرى أن ضريبة هذا التنازل ستتحمل أعباءها أجيال عربية لم تأت بعد؛ وذلك هو ما يفسر هذا التساؤل المر الذى وجهه الشاعر إلى أطفال العرب من الأجيال القادمة: (من منكم قبل التثمين؟).

إن هذا التساؤل يؤكد على رؤية الشاعر فى أن عملية الصلح عبارة عن مزاد يباع فيه الوطن – بكرامته وكل تضحيات أبنائه– علناً، تمهيداً للتخلى عن القضايا العربية كلية

(١) المصدر السابق نفسه – ص٥٦، ٥٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه – ص١٠٣، ١٠٤ .

والانعزال عن روح المقاومة، ومن ثم بدا الشعور بالإحباط واضحاً على هذا الشاعر الذى خاب أمله وتبددت طموحاته مع تأكيد عقد معاهدة السلام مع إسرائيل فى (٢٦ مارس ١٩٧٩)، وهنا نلاحظ كلمات الشاعر تفقد كثافتها حتى تلاشت كما تلاشت من قبل آماله وطموحاته التى كان قد عقدها على تحقيق نصر أكتوبر:

«يغتالنى النهر المحنط
.. فوق ظهرى
ذلك السوط المحنط
والجياد تموت.. تنزف
الجياد تموت.. تحلم
الجياد تموت
ترجع
الجياد....»[1].

لقد أسلم الشاعر نفسه لهذا الشعور الساحق بالإحباط الذى يعتصره ويستنزفه، وقد اتضح ذلك من الطريقة الكتابية التى اعتمدها هذا الشاعر .

ويلاحظ أن الشاعر قد رمز بصورة (الجياد) إلى روح المقاومة التى وئدت واستنزفت بعد أن تم تسليمها إلى مقصلة معاهدة السلام مع إسرائيل التى كتمت أنفاسها وقضت على أى فعل إيجابى لها فتساوى بذلك فعلها مع عدمه.

(وقد أشار الشاعر أمل دنقل من قبل إلى المعنى نفسه حين استخدم للرمز صورة (الخيول) وأفرد قصيدة كاملة عنون لها بهذا الاسم)*.

كما انتقلت عدوى الشعور بالإحباط إلى شاعر متأخر زمنياً عن هذين الشاعرين، وهو الشاعر (السماح عبد الله) [2]، الذى وجدناه ينظم – فى أواسط الثمانينيات –

(١) السابق – ص٣٨ .

* انظر الأعمال الكاملة – أمل دنقل – ٤١٧.

(٢) (السماح عبد الله الأنور فواز) مواليد سوهاج ٥ فبراير ١٩٦٣ محرر أدبى بالمركز الإعلامى بهيئة الكتاب .

قصيدته «سلام»[1] التى جاءت على هذا النحو من الإحباط والتشاؤم واليأس:

«اليوم
،صالحت عدوى
أكلت من طعامه
وشربت،
ماءه،
،وأسندت إلى الجدار
بندقيتى،
وكنت كلما مررت فى الطريق فى رواحى،
، أو غدوى
ورأيت رايتى
كمزقة من القماش،
، ليس فيها نقط من دم أجدادى
وسمعت صوتى فى المدى
، أقوله
، ولا يدوى
ينكسر الهواء فى أصابعى
وينهض الملح الثقيل،
، فى فمى
وينكروننى
أبى،

(١) الرجل بالغليون فى مشهده الأخير – شعر – السماح عبد الله – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٤ – ص٨١- يرجع كتابة هذه القصيدة إلى عام ١٩٨٦م.

، وأخوتى»[1].

إن هذه «القصيدة – وقد أوردناها كاملة* - تصور لحظة انكسار فادحة وهى لحظة الاستسلام والخضوع للعدو، وقد أخذ هذا الاستسلام صوراً عدة: الأكل من طعام العدو، الشرب من مائه، إلقاء السلاح (إسناد البندقية للحائط) سقوط الراية التى أصبحت كمزقة من القماش لا تزدان بنقط من دماء الشهداء من الأجداد، ضياع الصوت فى المدى دون أن يكون له دويه المألوف، كل هذه صور بائسة للاستسلام الذى يأخذ عنوان السلام»[2]. إنه الشعور الحاد بالإحباط الذى تولد لدى هذا الشاعر، وولد لديه تلك الصور المأساوية البائسة؛ خاصة بعد أن سيطرت عليه أحاسيس الخزى والعار، وتشبعت بها تماماً حواسه.

حاسة التذوق «أكلت، شربت، ينهض الملح فى فمى»

حاسة البصر «رأيت رايتى»

حاسة السمع «سمعت صوتى»

حاسة اللمس «ينكسر الهواء فى أصابعى».

وبذلك يكون الشعور بالإحباط قد احتل كيان هذا الشاعر بعد أن امتلأت به حواسه وجوارحه إلى الحد الذى أورثه مشاعر الضعف والانهزامية وانعدام الثقة بالنفس. وقد اتضح ذلك تماماً من صوت الشاعر الذى يطلقه فلايدوى، ومن أبيه وإخوته الذين أنكروه وتبرءوا منه.

وقد استخدم الشاعر (السماح عبد الله) «لإدانة الخضوع للعدو صيغة المضارع بما تفيده من تجدد وحيوية، فهذا الرفض متجدد أبداً، وهذه الإدانة للاستسلام مستمرة، فى حين استخدم فى تصويره لمظاهر الخضوع الفعل الماضى بكل ما يوحى به من ركود وجمود»[3].

---

(١) المصدر السابق – ص٨٣- ٨٥ .

* الكلام للدكتور على عشرى زايد الذى قدم لهذا الديوان .

(٢) المصدر السابق نفسه – ص١٧ .

(٣) المصدر السابق – ص١٨ من مقدمة د/ على عشرى زايد .

وأنا أرى أن استعمال الشاعر الأفعال الماضية والمضارعة قد جرى على حقيقته دون أى تحميل رمزى؛ فالشاعر يشير بالزمن الماضى إلى وقائع الأحداث كما جرت فى الواقع؛ فالقصيدة تنتمى إلى فتر زمنية متأخرة بسنوات طويلة عن عقد معاهدة السلام التى أبرمت فى عام ١٩٧٩ بينما يرجع تاريخ كتابة قصيدة الشاعر إلى عام ١٩٨٦م.

كما أن استخدام الشاعر للأفعال المضارعة أمر قد تم بما يتوافق مع طبيعة مجريات الأحداث؛ وبالتالى فهى تنتمى إلى الحقبة الزمنية المتواثمة معها؛ فالتنازلات ومؤتمرات الاستسلام ما زالت مستمرة. ومما يدعم ما ذهبت إليه أننا إن أردنا تبديل مواقع صيغ المضى مع المضارعة لما استقام الأمر.

فهل يصح أن يقول الشاعر مثلاً: «اليوم سأصالح عدوى» بينما ينتمى الحدث إلى واقعة تاريخية سابقة على نظم تلك القصيدة، فيكون التأويل الصحيح على هذا النحو (قد كان أن جاء هذا اليوم الذى فيه صالحت عدوى) من أجل ذلك أرى استخدام الشاعر لأفعال المضى أو المضارعة استخداماً حقيقياً ولا حاجة للزج بهما فى تأويل قد يتناسب مع وجهة نظرية لكنه فى الوقت ذاته يتنافى مع واقعية النص الذى قد يحمله هذا التأويل أكثر مما يحتمل.

وعودة إلى الشعور بالإحباط الذى تسرب إلى شاعرنا (السماح عبد الله) من جراء عقد معاهدة السلام مع إسرائيل؛ حيث وجد هذا الشاعر نفسه فى مواجهة مباشرة مع «أبطال السير الشعبية: أبى زيد الهلالى، وعنترة بن شداد، وحمزة البهلوان، وسيف بن ذى يزن وغيرهم، إنهم يملكون أسلحتهم: سيوفهم، ونشيدهم، أما هو فلا سلاح له سوى ربابته»[1]:

«هذا أنا،
، وهذه ربابتى
، وأنتم على مصطبتى
معى أبو زيد وعنترة وحمزة وابن ذى،
، يزن
، وغيرهم

(١) المصدر السابق نفسه – ص١٤ .

والعبد أطلق بوقه فجأة
والطارق الغجرى خبط فوق مطرقة،

، النحاس
فأتوا سراعاً

، للميادين الوسيعة فى دمى

، بسيوفهم
، ونشيدهم
، ونسائهم»[1].

يلاحظ أن الشاعر يكثر من استخدام الفاصلة (،) التى تقع بين طيات الكلام، لكن الشاعر هنا يتعمد استخدامها كثيراً فى أوائل الأسطر الشعرية، ويضعها بين المضاف والمضاف إليه مثل «وابن ذى، يزن» و«فوق مطرقة، النحاس) وهذه تجاوزات كتابية غير مألوفة، وغير صحيحة. ويبدو أن الشاعر جاء بهذه الفواصل المبعثرة على هذا النحو من الغرابة والشذوذ؛ ليرمز بتلك الطريقة الكتابية الغريبة الشاذة إلى واقع متناقض غريب يستحق التعبير عنه على هذا النحو من الغرابة والشذوذ.

كما يلاحظ أيضاً أن الشاعر – مع افتتاح قصيدته – لم يكتف باستخدامه لتلك الفاصلة؛ لتقوم بدور العازل بينه وبين ربابته، ولكنه استخدم أيضاً حرف العطف (الواو) (هذا أنا، وهذه ربابتى) «فحرف العطف هنا إنما يعطف ذاتاً على ذات ولا يوحد، ووجوده يؤكد استقلال كل ذات عن الأخرى»[2]، يؤكد تلك الاستقلالية والانعزال مجئ كل عبارة من العبارتين فى سطر شعرى كامل خاص بها.

وهكذا اتضح أن الشاعر يحاول أن يشير بكل الوسائل والطرق إلى انعزاله ليس عن ربابته – التى هى فى متناول يده بالفعل، بل عما تعنيه وترمز إليه تلك الربابة التى حملت فى نبرات أوتارها عبق بطولات هؤلاء الأبطال العرب وغيرهم ممن دارت حول بطولاتهم الأساطير، وحيكت النوادر من شجاعتهم ونخوتهم وصحة إقدامهم.

(١) السابق نفسه – ص٧٣، ٧٤.
(٢) مملكة أحمد عبد العاطى حجازى الشعرية – تحرير وتقديم – حسن طلب – ص٤٥١.

ولعل هول الفارق الشاسع بين ما اتسم به هؤلاء الأبطال العرب فى الماضى من عزة ونخوة وشجاعة، وبين ما صار إليه الحال من ضعف وتخاذل واستسلام دفع الشاعر إلى مهاوى هذا التساؤل المحبط:

«، ماذا سأفعل يا ندامى؟
، ونذير الحرب معقود على سقف السماء
، كصرخة
، الحدأة
وتر الربابة
، صاخب بصليلهم
ودمى تنقط بالدم المنزوف من قتلاهم
، وأنا
، أسير اللحن
، مشدود
، إلى نبضاته المجنونة الإيقاع
، مجذوب
، إلى جسد تداعى فى
، مواجهة ابن ذى يزن
، وندبة امرأة
لكن حنجرتى مشرخة
والعين
، داهمها النعاس»[1].

إن الفاصلة (،) تتكرر بين الجار والمجرور (فى، مواجهة) بل إن الأمر قد يصل

(١) الرجل بالغليون فى مشهده الأخير – شعر – السماح عبد الله – ص٧٤– ٧٦.

بالشاعر إلى أن يضعها بين المضاف والمضاف إليه «كصرخة، الحدأة».

إن هذا الشاعر كان يدرك تماماً أنه لا يملك أى رد فعلى على عقد تلك المعاهدة مع إسرائيل. لذلك نفس عن ضيقه وإحباطه عن طريق كسر الأعراف الكتابية المألوفة فهذا هو الفعل الذى يقدر على فعله بعد أن سلب أى فعل، أو أية إرادة يواجه بها ما حدث.

ولذلك كان الشعور بالإحباط حليفاً لهذا الشاعر الذى أعجزه هذا التناقض الذى راح يشتعل بداخله حتى عن مجرد الحكى والكلام؛ فحنجرته قد صارت مشرخة، وعينه داهمها النعاس. لا نعثر هنا على أى أثر لأى رفض أو أى مقاومة تذكر لهذا الشاعر الذى بدا متشائماً محبطاً حتى النهاية.

وذلك خلافاً لما ذهب إليه د/ على عشرى زايد الذى رأى أنه على الرغم من أن الشاعر قد صارت «حنجرته مشرخة وأعين داهمها النعاس. ومع ذلك فهو يقاوم الظروف التى تحاصره بمواتها وخمودها ويشاكسها ويرفض أن ينكسر أمامها أو يخضع، ولكننا لا نعدم أن نلمح بين الفينة والفينة لحظات انكسار عابرة، وظلال إحباطية كابية تظلل آفاق رؤيته»[1].

لكنى لا ألمح فى تلك القصيدة سوى حالات الانكسار، ومشاعر الإحباط الطاحنة التى غلفت القصيدة من ألفها إلى يائها، وظللت رؤية الشاعر بتلك الغلالة التشاؤمية الجاثمة التى لم تترك أى مجال لظهور تلك الروح المقاومة المشاكسة التى تحدث عنه الدكتور (على عشرى زايد).

وقبل أن أنهى هذا الرافد للشعور بالإحباط عند هذا الشاعر أؤكد على أن عدم ظهور مفردات ووقائع تدل مباشرة على معاهدة السلام مع إسرائيل يرجع إلى أن تلك القصيدة والقصيدة السابقة تنتميان إلى فترة زمنية متأخرة بسنوات عن توقيع تلك المعاهدة. لذلك فإن تمثل الشاعر روح تلك الواقعة سيكون هو الأقرب من تصوير مفرداتها وأحداثها الواقعية كما وردت عند شعراء آخرين عاينوها وتفاعلوا مع أحداثها أولاً بأول. ولكننا لم نحس مطلقاً بخفوت نبرة الشعور بالإحباط التى علت دقاتها بداخل

(١) المصدر السابق نفسه – ص١٤ .

هذا الشاعر الذى فطن إلى مساوئ مصالحة العدو بعد سنوات طويلة من الكفاح وإراقة الدماء الطاهرة البريئة. إنها معاهدة لم تستند إلى مبادئ الكرامة والحرية بقدر ما استندت إلى التخاذل والاستسلام.

ويكفى أن هذه الاتفاقية قد «أحدثت شرخاً فى صف الدول العربية المعارضة لإسرائيل وأمريكا، وقد بذلت السياسة الأمريكية والصهيونية مساعيهما لتوسيع هذا الشرخ»[1]، فإسرائيل لم تكن «ترغب فى التسوية الشاملة، لكنها كانت تميل إلى الاتفاقيات المنفردة على حساب المصالح الوطنية للبلدان العربية. ونجحت السياسة الأمريكية والصهيونية فى إقناع السادات بالصلح المنفرد حتى تكون مصر بعيدة عن النضال العربى المشترك، وتستطيع عن طريق هذه السياسة أن توجه ضربة للدول العربية المعادية للامبريالية الأمريكية، وأن تضعف مقاومتهم لأعمال إسرائيل التخريبية والتوسعية»[2] لذلك يمكن اعتبار تلك الاتفاقية «البداية الحقيقية لانكسار وتمزيق الصف العربى ولضياع قيمة الدم العربى بضياع الأرض»[3].

وبذلك تكون هزيمة يونية ١٩٦٧ قد «تحولت إلى نصر على حين أن النصر تحول إلى هزيمة وانكسار وتمزيق للجسد العربى»[4].

(١) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك – ص٢٨٦ .

(٢) المرجع السابق- ص٣٤ .

(٣) السابق نفسه – ص٩ .

(٤) السابق نفسه- ص٣٧ .